البَرَاجْمَاتِيَّة

عَرْضٌ وَنَقْدٌ

إعداد الدكتور:

منصور بن عبدالعزيز الحجيلي

أستاذ مساعد بجامعة طيبة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأرشدنا لهديه القويم ، ووفقنا للإيمان بالغيب والشهادة، والحاضر والمغيب ، واليقين بأن الخير كله فيما أرشدنا إليه ربنا ، سواء علمنا حكمته أم لم نعلم .

7 8 M ! " # $ % & ' (* + , - .
/ 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = >
? @ A B C D E F G I J K L L[(١)].

وبعد :

لقد كرم الله الإنسان بالعقل ، وفضله على كثير من خلقه ، وجعله مكلفاً ومحاسباً على أعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ .

ولكن بعض بني البشر يفرط في استخدام العقل ، ويخضع معايير المصالح والمفاسد لعقله ، ويربطها بمقدار المصالح الشخصية التي يكسبها ويتحصل عليها من خلال تصور نسبي أو ميل نفسي أو حدس شخصي .

ولقد طغت على كثير من المفاهيم تلك الإيديولوجيات التي تحدد معاير الصحة والصدق بمقدار ما تُحَقِّقُ من منافع ومكاسب. ومن تلك الإيديولوجيات : (البراجماتية)، حيث ظهرت كفكرة في النصف الثاني من

---

(١) البقرة: ١ – ٥

القرن التاسع عشر الميلادي ، وإن كانت ، كتطبيق إنساني ، قد سبقت ذلك بمراحل ، كما هو الحال في أية نظرية أو تطبيق .

ولقد تغلغلت تلك الأيديولوجية في معظم شؤون الحياة ، وتبنى أفكارها كثيرٌ من المثقفين، وطبق نظريتها كثير من أبناء البشر .

ولكن هذه النظرية – من وجهة نظري – هي من الخطر بمكان ، إن لم نفرق بين أجزائها ، ونلقِ الضوء عليها، ونُزِلْ ما قد يقع في أذهان البعض من شبهات ، عندما يرى عباراتها المعسولة ونتائجها المقبولة ، ويغفل عن اللوازم المترتبة على ذلك ، ويتغاضى عن الطريقة التي سارت فيها ، لتصل إلى تلك النتائج .

ونظرا لقلة الكتابات في هذا الباب ، وندرتها ، رأيت أن أساهم ، ولو بشيء يسير في التعريف بالمذهب البراجماتي ، وبيان أسسه ومبادئه، وأبرز رموزه وأنماطه ، ومناقشته من وجهتي النظر الفلسفية والدينية ، انطلاقاً من عقيدة إسلامية صحيحة ، من غير كسر عليه، أو تعسف في فهمه .

ومن هذا المنطلق سيكون بحثي مقسمًا إلى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة ؛ أبين في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياري له، وخطة البحث ، وفي التمهيد أعرف بالبراجماتية، وبأبرز رموزها[1] وأنماطها ، وفي الفصل الأول أتحدث عن أسس المنهج البراجماتي وقواعده ، والفصل الثاني مخصص لمناقشة المذهب البراجماتي من وجهتي النظر الفلسفية والدينية ، ثم

(١) أغفلت الحديث عن (شللر)، باعتبار أن البراجماتية التي دعا إليها غلب عليها اسم (المذهب الإنساني)، وأصبحت تشكل مذهبا مستقلا .

أختم بخاتمة تحوي ملخصاً للبحث والنتائج التي تم التوصل إليها، ثم أنهي البحث بفهرس للموضوعات.

التمهيد :

أولاً : تعريف البراجماتية (pragmatism).

البراجماتية مشتق من اللفظ اليوناني (pragma) ، وتعني العمل، ويؤخذ منها كلمة (عملي)[١]. وقد عرفها قاموس ويبستر العالمي (Webster) : بأنها تيار فلسفي أنشأه "تشارلز بيرس Charles Senders Peirce" و "وليام جميس Will James" يدعو إلى حقيقة أن كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية"[٢] .

وعرفها المعجم الفلسفي بأنها : مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملاً . وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة. والبراجماتي بوجه عام : وصف لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة[٣].

ولقد أوجد هذا المصطلح الفيلسوف الأمريكي "تشارلز بيرس" نحتاً جديداً من أصل إغريقي – ، وتحديداً من الكلمة اليونانية (pragma) -، ليدل بجدة اللفظ على جدة المذهب، وإلا فقد كان بوسعه أن يختار كلمة أخرى من اللغة المستعملة ليشير بها إلى الجانب العلمي التطبيقي، الذي أراده[٤] .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٢: ٩٤٢ مادة (نفع) . المنجد في اللغة والأعلام : ٨٢٦ .

(٢) انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ٤ ، ١٠

(٣) انظر: المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية - : ٣٢ .

(٤) انظر : من زاوية فلسفية . د: زكي نجيب محمود : ٢٠٦ . المعحم الفلسفي – مراد وهبة - : ٧٤.

ثم تطور هذا المصطلح على يد الفيلسوف الأميركي (وليم جيمس) ، ومن ثم (جون ديوي). وهم وإن اتفقوا في الأصول فإن لكل واحد منهم لونًا يميزه في نظرته للبراجماتية[١] ، كما سيأتي معنا لاحقاً.

ولقد وصف جون ديوي "البراجماتية" بأنها فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج. أما "البراجماتية" فهي تدع الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حق أو حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع[٢]، وقد يطلق عليها من منظور (جون ديوي) مصطلح (أداتية)، حيث يقول : إن المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتجربة[٣] ؛ فالفكرة أداة فعل لديه[٤] .

والفلسفة "البراجماتية" هي : فلسفة تصور العصر العلمي الذي نعيش فيه اليوم بصفة عامة ، وتصور الحياة العملية التي يعيشها الأمريكيون في مدنيتهم الصناعية الحديثة بصفة خاصة[٥] .

وقد أشار "بيرس" في مقالته التي بعنوان (كيف نجعل أفكارنا واضحة) إلى أن عقائدنا إنما هي في الواقع قواعد للعمل والأداء، وأننا لكي ننشئ فكرة معينة، فكل ما نحتاج إليه إنما هو تحديد أي سلوك وأي فعل تصلح

---

(١) انظر : مدخل جديد إلى الفلسفة – د. مصطفى النشار - : ١٦٤ .

(٢) انظر : من زاوية فلسفية .د: زكي نجيب محمود : ٢٢٢ .

(٣) انظر المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية - :٥ . الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي -: ١٦١.

(٤) فلسفة التقدم – حسن محمد الكحلاوي : ٩٧ .

(٥) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاوي : ٩٧ .

لإنتاجه. وأننا لكي نتأكد من وضوح أي فكرة، علينا أن ننظر في الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع، سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة[١].

ولم يكن "بيرس" يتوقع النجاح الكبير الذي سيلاقيه هذا المذهب الجديد، الذي عبر عنه، حيث ظل هذا المذهب زهاء عشرين عاماً مهملاً، حتى بعثه الفيلسوف الأميركي "وليم جيمس" من مرقده، وأخرجه إلى حيز الوجود[٢] ، وأضاف عليه، ونشره على الناس في مؤلفاته، حتى أصبحت "البراجماتية" لفظة تتردد في الأوساط الثقافية في كل مكان في العالم[٣] ، وأصبح مذهب "تشارلز بيرس" ، وما ادخله عليه "وليم جيمس"، وما أضافه عليه "جون ديوي" من أشهر الحركات الفلسفية في هذا العصر[٤] .

وهؤلاء الأعلام الثلاثة الذين قاموا بحمل الفلسفة "البراجماتية" على كواهلهم ، كان لكل واحد منهم لون يميزه عن الآخر، وإن اتفقوا في أصلها الذي يقوم على أن معيار صدق الفكرة إنما يكون من خلال ما ينتج عنها من نتائج ملموسة[٥].

---

(١) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٦٥ – ٦٦ (بتصرف) . مدخل جديد إلى الفلسفة - د: مصطفى النشار -: ١٦٢ – ١٦٣ . المعجم الفلسفي – مراد وهبة - : ٧٤ .

(٢) انظر البراجماتية – وليم جيمس - : ٦٦ .

(٣) انظر : قصة الفلسفة الحديثة . نجيب محمود وأحمد أمين : ١٦٢_١٦٣ .

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم: ٤١٧_٤١٨. قصة الفلسفة الحديثة. نجيب محمود وأحمد أمين: ١٦٣.

(٥) انظر : مدخل جديد إلى الفلسفة – د. مصطفى النشار - : ١٦٣ – ١٦٤ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٩ .

ثانيا : أبرز رموز البراجماتية [١].

١ - تشارلز بيرس : Charles Senders peirce (١٨٣٩ – ١٩١٤)

ولد "تشارلز ساندري سانتياكو بيرس" في كمبرج من ولاية ماسا شوستس في عام (١٨٣٩)، وهو الابن الثاني لبنجامين بيرس أستاذ الرياضيات وعلم الفلك في (هارفرد)، وكان أول فيلسوف أمريكي يخرج على العالم بفكر جديد يبلور فيه الحياة العقلية كما تمثلت في القارة الجديدة ، وتوفي في سنة (١٩١٤)[٢] .

ويعتبر "بيرس" هو المؤسس والرائد الأول للبراجماتية، وأكثر قطب من أقطابها عمقاً في مفهومها، إلا أنه أقل واحد فيهم شهرة، حتى إن مؤلفاته لم تنشر إلا بعد وفاته بأعوام طويلة؛ فهو الذي أنشأ الفلسفة "البراجماتية"[٣] ، وذلك عندما نشر مقالة كتبها عام (١٨٧٨) بعنوان (كيف نجعل أفكارنا واضحة)، وأشار فيها إلى: أن عقائدنا إنما هي تحديد أي سلوك وأي فعل تصلح لإنتاجه، وإننا لكي نتأكد من وضوح أية فكرة، علينا أن ننظر في

---

(١) انظر للتوسع : http://www.peirce.org/ (موقع يعنى بالفيلسوف تشارلز بيرس وأفكاره) و(http://johndewey.org/Welcome.html (موقع خاص بالفيلسوف جون ديوي) . هذه روابط عن موقع يعنى بالبراجماتية التطبيقية ، وهو (http://neopragmatism.org/)

(٢) انظر :أعلام الفكر الفلسفي المعاصر : ٩٥ . الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي -: ١٥٨ – ١٥٩ . من زاوية فلسفية : د . زكي نجيب محمود : ٢٠٢ .

(٣) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ٩٥ .

الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع، سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة[1] .

ويقول "بيرس" عن نفسه : إنه عندما كان يدرس المدارس الفلسفية كلها، ويتتبع طرائق الفكر عند أصحابها، لم يكن ينظر إليها من وجهة نظر الفيلسوف اللاهوتي، الذي يتناول مادته وكأنها هي معصومة من الخطأ، بل كان ينظر إليها من وجهة نظر الباحث العلمي في معمله، فيبحث عن الجديد الذي لم يُعْرَف بعد[2] .

ولقد أمضى على هذا المنهج ما يزيد على ثلاثة أعوام، بمعدل ساعتين يومياً، كان يدرس فيها كتاب (نقد العقل الخالص) لـ (كانت)، حتى حفظ محتواه عن ظهر قلب. ولقد طبق "بيرس" هذا المنهج على (الفلسفة الألمانية) على وجه الخصوص ، حتى انتهى إلى نتيجة مفادها، أن معظم الفلسفة الألمانية ليست بذات قيمة تذكر، من حيث المنهج الذي يؤدي إلى فكر جديد[3] .

ولقد أوجز "بيرس" فلسفته بقوله : (إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي أن يصور بنية الكون تصويراً لا يتعدى ما تسمح به مناهج

---

(١) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر : ٩٧ . البراجماتية – وليم جيمس - : ٦٥ – ٦٦ قصة الفلسفة –ول ديورانت - : ٦١٨ . مدخل جديد إلى الفلسفة – د. مصطفى النشار - : ١٦٢

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٢

(٣) انظر :أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ٩٦ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود :٢٠٢ . ٢٠٣

البحث العلمي، مستعيناً في ذلك بكل ما قد سبقني إليه السالفون. لكنني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب القطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية فيما بعد. كلا ، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها ، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق، ولذلك فهو يتميز أول ما يتميز بقابليته للصواب وللخطأ، وفق ما تقدمه المشاهدة لنا بعدئذ من شواهد[1] .

وإن أهم ما يميز فلسفة "بيرس" أنها فلسفة علمية تجريبية، والذي يجعلها "علمية تجريبية" لا "تأملية" هو أنها إذا ما نسبت إلى الكون حقيقة ما ، اعتمدت في ذلك على تأييد الوقائع التجريبية، مع ملاحظة أن هذا التأييد قد لا يجيء على يد الفيلسوف نفسه ، بل قد يجيء على يد باحثين من بعده، لذلك كان الطابع العلمي يحتم أن تكون الفلسفة عملاً مشتركاً يتعاون على أدائه أكثر من شخص واحد، وليست بالإنتاج العقلي الذي ينجزه من أوله إلى آخره شخص واحد بمفرده[2] . فالفلسفة البراجماتية نمط من أنماط

---

(١) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٠٠ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٤ .

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٤ _ ٢٠٥ . نافذة على فلسفة العصر . د.زكي نجيب محمود : ١٢٩ .

الفلسفة العلمية، أي أنها لا تقبل أن تكون الفلسفة مبنية على شكل نسق مختوم بقفل لا يقبل الزيادة ولا التعديل، بل تكون كالعلم في كونها سيراً متصلاً جديده بقديمه ، بحيث لا يكون هناك أمرٌ يقال إنه الكلمة الأخيرة [١].

فمذهب "بيرس" البراجماتي هو "قاعدة منطقية" لتحديد "المعنى" ، أو بعبارة أخرى نستطيع القول بأن "براجماتية بيرس" هي نظرية في "المعنى"، ولا شأن لها بعد ذلك، أصدق الكلام أم لم يصدق على الواقع[٢] ؛ حيث إنها تنظر لجميع الأفكار بنفس المنظار، وأنه ليست هناك أية فكرة معصومة، وينبغي إخضاع الجميع للبحث العلمي، ومن خلال النتائج يتم الحكم بصحة تلك الفكرة من عدمها، مع ملاحظة أن النتائج قد لا تتم على يد نفس الفيلسوف وإنما قد تتم بعده بزمن[٣].

---

١ انظر : فلسفة وفن . زكي نجيب محمود : ١٧٠ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٥.

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٨ ، ٢١٥ . نافذة على فلسفة العصر – د.زكي نجيب محمود : ١٣٣

(٣) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٠٤ . أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٠٢ – ١٠٣ .

٢ - وليم جيمس : William James (١٨٤٢ – ١٩١٠ م).

ولد "وليم جيمس" في شهر يناير من عام (١٨٤٢)[١] بمدينة نيويورك، وله خمس إخوة هو أكبرهم ، ومن بين إخوته الأديب القصصي المشهور "هنري جيمس"[٢] .

وقد كانت أسرته متدينة وثرية في نفس الوقت، فكانت مؤمنة بدينها ومستمتعة بثرائها، مما جعلها أسرة مثقفة مهذبة. وقد استغلت هذا التدين والثراء حيث راح أفرادها يطوفون بمراكز الحضارة في أوروبا ليتحصلوا على الخبرة الواسعة والعلم الغزير[٣] .

وكان من نتيجة هذه الحياة المتنقلة أن تعلم "وليم جيمس" إبان مرحلته الدراسية الأولى في عددٍ من المدارس المختلفة موقعاً وطابعاً ولغة، فدخل مدارس نيويورك ولندن وباريس وجنيف، مما جعله يتقن لغات المدارس التي دخلها جميعاً في مرحلة شبابه.

وعندما عادت الأسرة من ترحالها الطويل إلى أرض الوطن، دخل جامعة "هارفارد"، والتحق بقسم "الكيمياء" في بدء الأمر، ثم انتقل منه إلى

---

(١) انظر : الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي -: ١٥٩ . وانظر : مقدمة المترجم لكتاب (بعض مشكلات الفلسفة لوليم جيمس) د. محمد فتحي الشنيطي : ٧ – ١١ .

(٢) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٠٥ . وانظر : مقدمة المترجم لكتاب (البراجماتية لوليم جيمس) د . محمد علي العريان : صفحة (هـ) . قصة الفلسفة – وول ديورانت - : ٦١٦ .

(٣) انظر : المذاهب الفلسفية المعاصرة – سماح محمد رافع - : ٥٤ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٠

قسم التشريح ووظائف الأعضاء، وأخيراً استقر على دراسة الطب، فتخرج "وليم جيمس" من الجامعة طبيباً وعين بإحدى المستشفيات[١]، ولكنه لم يلبث أن شد رحاله مرة أخرى إلى أوروبا ، ثم أكمل دراسته العليا في الطب. ولما عاد إلى جامعة "هارفارد" كانت قد خلت في الجامعة وظيفة مدرس لعلم وظائف الأعضاء، فعين بها، وأخذ يلقي سيلاً من المحاضرات عن صلة ذلك العلم بعلم النفس .

وظل على هذه الحال طيلة خمس سنوات، استطاع خلالها أن يؤسس أول معمل لعلم النفس التجريبي في الولايات المتحدة الأمريكية، مما أدى إلى بروزه كشخصية فذة غير عادية جمعت في شخصها بين عالم الفيزيولوجيا وعالم النفس المبرز، إضافة لكونه واسع المعارف في ميادين الفنون، وذا طبع متدين عميق التدين، مع كونه كاتباً لامعاً ، مما كان له الأثر الكبير والقوي على مجمل الفلسفة الغربية في القرن العشرين[٢].

وكانت أولى ثمرات ذلك الجهد وتلك الدراسة الطويلة كتابه العظيم "أصول علم النفس" ، وبعد ذلك رقي "أستاذاً مساعداً للفسيولوجيا"، فأستاذاً مساعداً للفلسفة، ثم "أستاذاً للفلسفة"، وذلك عام (١٨٨٥)، وكان عمره وقتئذ ثلاثة وأربعين عاماً .

---

(١) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٠٥ .

(٢) انظر : الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي -: ١٥٩

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يتجه "وليم جيمس" نحو التفكير الفلسفي الصرف، فأخرج كتابه "إرادة الاعتقاد"[١]، ثم ألقى سلسلة من المحاضرات في الدين والفلسفة في "أدنبره"، خرجت بعد إلقائها في شكل كتاب بعنوان "صنوف من التجربة الدينية"، ثم بعد ذلك ألقى ثماني محاضرات[٢] في مدينة "بوسطن" عام (١٩٠٦)، ثم أعاد تلك المحاضرات بعد عام واحد في "جامعة كولومبيا"[٣]، فظهرت تلك المحاضرات على شكل كتاب باسم "البراجماتية"[٤]، وبعد ذلك بوقت يسير ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات، جمعها في كتابه "الكون المتعدد "، وكان آخر كتاب له هو "بعض مشكلات الفلسفة"، وقد مات قبل أن يكمله، فنشر ما كتب منه بعد موته[٥]. وكان موته سنة (١٩١٠) عن تسعة وستين عاماً[٦] .

والفكرة الرئيسة في فلسفة "وليم جيمس"، هي نفسها الفكرة الرئيسية عند أنصار الفلسفة "البراجماتية "، وهي الفكرة الخاصة بتحديد مفهوم "المعنى"، وهو أن ما يجعل للعبارة "معنى" كونها ذات نتائج عملية تترتب

---

(١) وقد ترجمه للعربية الدكتور محمود حب الله . ونشرته الجمعية الفلسفية المصرية .

(٢) وقد خرجت هذه المحاضرات باسم (البراجماتية لوليم جيمس)، وترجمها للعربية الدكتور محمد علي العريان .

(٣) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٩ .

(٤) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٠٦

(٥) وقد ترجمه للعربية د.محمد فتحي الشنيطي . ونشرته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٦) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٠ _ ٢١١

على تنفيذها، أما إذا كانت أمامك عبارة لاتدري كيف تحولها إلى تجربة حسية تحسها بحواسك، كانت تلك العبارة بغير "معنى "، ومن زعم أنه يفهم لها "معنى" فهو مخدوع[١] .

إلا أن "وليم جيمس" تفرد عن "البراجماتيين" جميعاً بنظرية أخرى يضيفها إلى نظرية "المعنى"، هي نظرية "الصدق" أو "الحق"، ومفادها أن العبارة ذات المعنى لا يتحتم أن تكون صادقة، بل حسبها لتكون ذات "معنى" أن تكون مفهومة، على أساس ما عساه أن يصادف الحواس من خبرات لو كانت صادقة[٢] ، بمعنى أن صدق الفكرة يقاس بمدى ما تحققه من قيمة فورية منصرفة، وهو يقصد من ذلك التأكيد على الدور المؤثر الذي ينبغي أن تلعبه الأفكار والمعتقدات في حياتنا العملية .

وقد عرف هذا الفيلسوف بحكم نشأته وفطرته وتدينه، كيف يستخدم معياره في "الصدق" ليبرهن به على حقيقة وجود الله لما وجد في ذلك من حقيقة نافعة، لها آثارها العملية في حياة المؤمنين[٣]، مما جعله مختلفًا عن بقية زملائه "البراجماتيين"، الأمر الذي حدا بـ "تشارلز بيرس" الذي استخدم كلمة "براجماتية" لأول مرة أن يحتج على "وليم جيمس" قائلاً : إنه سيتخذ لنفسه كلمة أخرى يسمي بها مذهبه، وسيتوخى فيها أن تكون قبيحة ثقيلة

---

(١) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٣

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود :٢١٤ _٢١٥ وانظر : قصة الفلسفة . مراد وهبة : ١٠٥

(٣) انظر : مدخل جديد إلى الفلسفة – د. مصطفى النشار - : ١٦٩ .

على النطق حتى لا يخطفها الخاطفون، ثم يسيئون استعمالها ، ألا وهي كلمة "براجماتيقية"[١] .

إلا أن ذلك لم يؤثر على (وليم جيمس)، حيث ظل في دنيا المثقفين – غربًا وشرقًا- اللسان المعبر عن البراجماتية، بل عن الفكر الأمريكي[٢] .

٣ - جون ديوي :John Dewey (١٨٥٩ – ١٩٥٢م)

ولد " جون ديوي " في العشرين من أكتوبر سنة (١٨٥٩م)، وهي السنة نفسها التي أصدر فيها "دارون " كتابه "أصل الأنواع" (the origin of species) ، والذي يمكن أن يعد فاصلاً بين عصريين ثقافيين ، عصر قبله يتصور العالم سكونياً ثابتاً ، وعصر ثقافي بعده يجعل حقيقة العالم متغيرة ومتطورة ومتحركة[٣] .

وقد ولد ونشأ في أسرة زراعية ريفية في ولاية بأقصى الشمال الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية[٤] .

وفي أثناء دراسته في الجامعة، درس فلسفة "هيجل" (Hegel) فتأثر بها ، شأنه في ذلك شأن كل دارس للفلسفة، حيث كانت الموجة "الهيجلية" إذ

---

(١) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد خليل - : ٩٧ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٦ _ ٢١٧

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٧

(٣) انظر : جون ديوي – د. أحمد فؤاد الأهواني - : ١٥ ، ١٩ . الفلسفة المعاصرة في أوربا إ. م . بوشنسكي -: ١٥٩ . قصة الفلسفة – وول ديورانت - : ٦٢٥ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٨

(٤) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢١٩ _ ٢٢٠

ذاك قد طغت على كل ما عداها من موجات الفكر الفلسفي، سواء في القارة الأوربية بما فيها "إنجلترا" أم القارة الأمريكية[١] .

وقد انتقل "جون ديوي" إلى "شيكاغو" في أوائل نضوجه الرجولي[٢] فلحظ اختلافاً كبيراً بين الحياة التي كان يعيشها في شرق الولايات المتحدة وبين ما يراه حاضراً .

فقد رأى القوم في "شيكاغو" لا يؤمنون بالجلوس الهادئ على كراسي ثابتة القوائم، يدرسون "نظريات" لا تسمن ولا تغني من جوع، بل يؤمنون "بالعمل" اليدوي وبالسعي الدؤوب الذي لا يفتر لحظة عن الإنتاج والخلق. فأثر هذا في تفكيره وجعله يؤمن بأن مقياس الصواب هو النتائج، فما كانت نتيجته نجاحاً في حل المشكلات العملية فهو الصواب ، وأن كل شيء في حياة الإنسان قابل للتغيير ، ولا مفر من تغييره إذا دعت الضرورة إلى ذلك التغيير ، بل لابد من تغيير قواعد الأخلاق _ ذاتها _ إذا اقتضى الإصلاح هذا التغيير، وكذلك لابد من تغيير أسس السياسة والاقتصاد والتربية ، وكل شيء مما قد يظن به الدوام والثبات، في سبيل تغير الحياة تغييراً يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد .

لذلك انصرف "ديوي" باهتمامه أول الأمر إلى "التربية"، يمعن النظر في أسسها وطرائقها، فأخرج أول كتاب "تربوي" له بعنوان "المدرسة والمجتمع" (school and society)، وذلك عام (١٨٩٩) ، شرح فيه

(١) انظر: جون ديوي – د. احمد فؤاد الأهواني - : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) جريدة الثورة السورية – شؤون ثقافية – الأحد ٢٧ / ١ / ٢٠٠٨ – حكمت فاكه .

طرائقه التي كان يتبعها في مدرسته "التجريبية" الملحقة بالجامعة[١] ، ثم تلا ذلك كتاب آخر هو "الديمقراطية والتربية" (Democracy And Education) وذلك عام (١٩١٦) [٢] ، بين فيه أن التربية هي أن ننشئ الناشئ على سرعة المواءمة بين نفسه وبين بيئته ، لا على أن يحافظ على التقاليد القديمة مهما تكن آثارها على حياته العملية الجديدة[٣] .

ولقد كان "جون ديوي" ثالث ثلاثة أعلام ضخام[٤] ، حملوا الفلسفة "البراجماتية" (العملية والعلمية) على كواهلهم، وهم وإن اتفقوا في أصول الفلسفة، إلا أنه كان لكل واحد منهم لون يميزه .

واللون الذي يميز "جون ديوي" من دونهم هو محاولته استخدام منهج العلوم عند التفكير في القيم، فينبغي أن تكون الصورة المثلى التي نصور بها فضيلة من الفضائل – مثلاً – بمثابة (فرض عملي) يخضع للتجربة العملية، فإن ثبت صدقه على الواقع كان بها، وإلا وجب أن نصوغه صياغة أخرى، بحيث يحقق للإنسان حياة يبتغيها، وليست العبرة هنا بكل فرد على حدة، بل بمجموع الأمة أو الإنسانية كلها، تماماً كالفروض ، لا تتحقق لفرد بعينه

---

(١) أي جامعة : شيكاغو .

(٢) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٢١ _ ٢٢٢

(٣) انظر : جون ديوي – د. احمد فؤاد الاهنوي - : ٣٥ – ٣٦ . من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٢٢ ، وانظر : المفكرون من سقراط الى سارتر. هنري توماس : ٤٣٨ . أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١٢٣.

(٤) هم : تشارلز بيرس و وليام جيمس ، وثالثهم هو "جون ديوي"

وكفى ، بل لا بد لها أن تتحقق لمجموعة العلماء المشتغلين بالفرع الذي جاءت تلك الفروض لتفسير ظواهر تقع في مجاله[١].

وإن أهم موضوع أدار "جون ديوي" حوله الفكر، هو عملية تحليل الفكر نفسها، "فالأفكار" ما طبيعتها وما أصلها ؟ وكيف تطورت في عقل الإنسان من أصولها البيولوجية والاجتماعية الأولية البسيطة حتى أصبحت على ما أصبحت عليه ؟ .

ولقد انفرد "جون ديوي" وحده دون سائر "البراجماتيين" بما يسميه "المذهب الوسائلي" أو "المذهب الذرائعي"[٢] ، وهو أنه ليس هناك حقيقة قائمة بذاتها أبداً ، بل إن كل حقيقة إنما هي خطوة في طريق متسلسل طويل، يؤدي في النهاية إلى "حل" لمشكلة معينة ، وهذا "الحل" الأخير نفسه يستحيل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها ، بل إنه سرعان ما يصبح حلقة في سلسلة فكرية جديدة، يراد بها "حل" إشكال جديد[٣].

ولقد بسط ديوي منطقه "البراجماتي" تفصيلاً في عدة كتب، منها كتاب "المنطق"، وكتاب "البحث عن اليقين"، وكذلك كتاب "كيف نفكر". وخلاصة ما في هذه الكتب كلها أن "الفكرة" – أية فكرة – لا تستحق أن تسمى بهذا الاسم مالم تكن ذات علاقة وثيقة بموقف ماثل أمام صاحبها، بأن تقدم له حلاً مقترحاً لما يكتنف ذلك الموقف من إشكال ، ولكن ما

(١) انظر : جون ديوي – د. احمد فؤاد الاهنوي - : ١٠١

(٢) مشتق من (وسيلة).

(٣) انظر : جون ديوي – د . احمد فؤاد - : ١٠٣ ، ١٠٤

الذي يدل على أن "الفكرة" صواب ؟ يدل على ذلك أن تطبق فتنفع، إذا فمعنى "الفكرة" و "طريقة تطبيقها" شيء واحد ، ومالا تطبيق له لا معنى له ، فلسنا نحكم بأن الفكرة ذات معنى ، أو أنها فكرة صواب لمجرد احتكامنا إلى "عقل نظري غيبي" يقال انه يسكن رؤوسنا ، بل الحكم مرهون بالتطبيق وحده ، أو بعبارة أخرى "الفكر" لا يكون فكرًا إلا إذا كانت له علاقة وسيلة بما ليس فكراً، كالسكين تقطع غيرها ، والمنشار يشق ما ليس بمنشار[١] .

وفي اليوم الأول من شهر "يونيو" من عام (١٩٥٢) مات ذلك العالم ، بعد أن ملأ الدنيا بفكره ، عن عمر يناهز الثانية والتسعين . ولقد كان بذلك الفكر أقوى من عبَّر عن حضارة العلم والصناعة ، حضارة القرن العشرين[٢] .

---

(١) انظر : من زاوية فلسفية . د : زكي نجيب محمود : ٢٢٣ _ ٢٢٤ . أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل - : ١١٧

(٢) انظر : المصدرين السابقين .

ثالثاً : خلاصة تعريفات البراجماتية من خلال رموزها :

تقدم معنا تعريف البراجماتية، ومن ثم التعريف الذي ارتضاه كل واحد من رموزها الثلاثة (تشالرز بيرس ، وليم جيمس ، جون ديوي) .

وهؤلاء الرموز الثلاثة وإن اتفقوا على أصول البراجماتية، وعلى أن ما يجعل أي فكرة أو معتقد ذات معنى هو كونها ذات نتائج عملية ملموسة تترتب على تنفيذها[1]، إلا أن كل واحد منهم قد اختط خطاً خاصًّا به ، ولوناً مغايرًا لما عليه صاحباه .

فإن (تشالرز بيرس) نظر للفكرة في البراجماتية باعتبار المعنى، فاهتم بالتفكير المنطقي وطرائقه في إيضاح المدركات العقلية، فالفكرة الصادقة لديه هي التي يكون لها نتائج عملية مفيدة[2] .

أما وليم جيمس فمع موافقته لـ(تشالرز بيرس)، إلا أنه قد أضفى على معنى البراجماتية الطابع النفعي، فتعامل مع صدقية الأفكار من منطلق القيمة الفورية العملية، ومقارنة النتائج العملية الناتجة عن نظرية ما؛ فاهتم بصدق الكلام: متى يكون؟ وكيف يكون؟ فالعبارة لديه تكون صادقة - لا مجرد كونها ذات معنى مفهوم-، وإنما إذا تصرفت على أساسها، فلم تجد ما يعترض طريقك الذي يوصلك إلى غايتك ، ولذا كان يضرب المثل على ورقة النقد، فيقول : إنها تظل صالحة للتعامل إلى أن يعترضها معترض،

(١) انظر : مدخل جديد إلى الفلسفة – د. مصطفى النشار - : ١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) انظر : جون ديوي – د.احمد فؤاد - : ٨٤ – ٨٥ .

ويثبت زيفها وبطلانها، وتستمر مصداقيتها مادامت سارية المفعول، فنحقق بها ما نريد من أغراض[١] .

وهذان الرأيان ينظران للحقيقة على أنها ليست قيمة مستقلة، بل منهجاً للتفكير، وبهذا تكون الحقيقة عندهم متطورة، فما كان صادقاً وصحيحاً اليوم قد يكون كاذباً وخاطئاً في الغد .

إلا أن (وليم جيمس) - بحكم تدينه- اختلف عن (تشارلز بيرس) في مفهوم الفكرة الصادقة ، فـ (بيرس) ينظر لها من خلال النتائج المباشرة التي يمكن أن تتحقق عن طريق التجربة، أما (جيمس) فمع موافقته لـ(بيرس) في نظرته للفكرة من خلال النتائج المباشرة ، إلا أنه ينظر لها- أيضاً - من خلال النتائج غير المباشرة التي تترتب على الإيمان بفكرة، أو التمسك بعقيدة ، حيث يكون للإيمان نتائج عملية مرضية . وبهذا يكون (جيمس) قد وسع من كلمة (نتائج)، فأدخل في نطاقها الآثار الوجدانية، والغايات العملية[٢] ؛ إذ يقول : إذا أثبتت الأفكار اللاهوتية أن لها قيمة في الحياة الملموسة المحسوسة فهي أفكار صحيحة بالنسبة للبراجماتي ، بمعنى أنها نافعة إلى هذا الحد[٣].

---

(١) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧ – ٧٤ (بتصرف) وانظر : من زاوية فلسفية – د .زكي نجيب محمود : ٢١٥ – ٢١٧ . في الفلسفة العامة - دراسة ونقد – د: محمد عبد الله الشرقاوي : ٤٥ . مدخل جديد إلى الفلسفة - د: مصطفى النشار - : ١٦٦ .

(٢) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - :٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٥. و انظر للزيادة : دراسات في الفلسفة المعاصرة – زكريا ابراهيم – ج ١ : ٣٧

(٣) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٩٦

أما (جون ديوي) فقد أدخل الوسيلة أو (الأداتية) في مفهوم البراجماتية؛ حيث جعل المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتجربة ؛ فالفكرة أداة فعل لديه ، فجمع بين المادية العلمية وآراء (وليم جيمس) الدينية ، إلا أنه صبَّ اهتمامه على ناحية العلوم الطَّبعيِّة، وأخذ بالمذهب السلوكي الذي يقول : (إن العقل ما هو إلا ما يفعله الجسم). وقد انتهى إلى أنه لا توجد معرفه حقيقية خارج المعرفة التي ينتجها منهج العلوم الطَّبعيَّة ، وأنه من غير الممكن البحث عن أسباب الأعمال خارج نطاق التجربة ، لذا ينبغي رفض كل الأفكار التي تتعالى على الطبيعة في هذا العصر المتقدم، والاتجاه إلى الخبرة؛ حيث إنها تعلمنا أن كل شيء يتغير، وأنه لا يوجد ثبات أو سكون في ميدان المادة، ولا في ميدان العقل[1].

تلك هي البراجماتية في مفهوم أقطابها الثلاثة، الذين لا تكتمل صورة الفلسفة البراجماتية إلا بهم؛ فقد وضع أولهم الأساس وابتكر الاسم، وأقام ثانيهم البناء وأعلى طوابقه طابقاً فوق طابق، وأكمل ثالثهم البناء وجمَّله وأضاف إليه اللمسات الأخيرة[2] ، مما أحدث نوعًا من الاختلاف والتفاوت بين رموزها، أدى إلى ظهور البراجماتية بأنماط عديدة ومختلفة .

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي -: ١٦٢

(٢) انظر : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر – فؤاد كامل – : ٩٥

رابعاً: أنماط البراجماتية:

١ – **البراجماتية الإنسانية**؛ وهي التي ترى أن كل ما يحقق الأغراض والرغبات الإنسانية حق. وهذا النمط يتضح لنا بجلاء في كتابات الفيلسوف الأميركي (وليم جيمس)، وبالذات في كتاباته عن الأخلاق وعن الدين[١]، وقد نقل الفيلسوف الإنجليزي (شيلر) هذا النمط إلى انجلترا، وأسس المذهب الإنساني.

٢ – **البراجماتية التجريبية**: وهي ترى أن الحق هو ما يؤدي إلى عمل بمعنى ما يكون متحققا تجريبياً. وهذا هو المبدأ الذي تقوم عليه البراجماتية التي تعد تطويراً للمنهج التجريبي.

٣ – **البراجماتية الاسمية**: وهي فرع من البراجماتية التجريبية؛ حيث ترى أن نتائج الأفكار هي ما نتوقعه في صورة وقائع جزئية مدركة في الخبرات التي تحدث في المستقبل، وعلى سبيل المثال؛ فإن معنى الطبيعة الإنسانية والأقوال الصحيحة التي تقال عن هذه الطبيعة لكل هذا ليس عن جوهر معين لـ (الإنسان)، بل بالأحرى عن الأفعال الجزئية لأفراد الناس الجزئية. وقد كان (بيرس) و (جيمس) يأخذان بكلا النمطين، فتارة يأخذان الموقف التجريبي وتارة الموقف الاسمي[٢].

---

(١) انظر: البراجماتية: ٣١٧ – ٣٥٠ (المحاضرة الثامنة عن البراجماتية والدين). وانظر: مدخل إلى الفلسفة المعاصرة – د. محمد مهران رشوان - : ٤٤.

(٢) انظر: مدخل إلى الفلسفة المعاصرة – د. محمد مهران رشوان - : ٤٤

٤ – **البراجماتية البيولوجية** . وهي الرؤية البيولوجية للبراجماتية ، ويرتبط هذا النمط بشكل دقيق بالعالم البراجماتي (جون ديوي) ، ويرى هذا النمط أن الفكر إنما يهدف لمساعدة الكائن العضوي ليتوافق مع بيئته؛ فالتأقلم الناجح ، المؤدي إلى البقاء والنمو ، هو بمثابة المعيار على صدق الأفكار[١] .

---

(١) انظر : مدخل إلى الفلسفة المعاصرة – د . محمد مهران رشوان - : ٤٤ – ٤٥ .

الفصل الأول .

أسس وقواعد المذهب البراجماتي :

١ – التجريبية العلمية .

تعد الفلسفة البراجماتية تطويراً للاتجاه التجريبي العلمي، ودفعاً به إلى نتائجه الطَّبعيِّة[١]، ولكنها تمثله في شكل أكثر تطرفاً، وأقل ممانعة فيه، واعتراضاً عليه، في نفس الوقت كما يقول رائدها (وليم جيمس)[٢]. ذلك أنها تتجاوز سلبيات المناهج السابقة، وتأخذ أفضل ما فيها لتكون منبعاً جديدًا يوجهنا للعمل، بدلاً من التأمل في ظواهر الكون، فهي منهج عملي انتقائي، يرفض الجمع بين المتناقضات عندما يدعونا للاختيار[٣].

كما أنها تتفق مع مذهب الاسمية عندما تلجأ دائماً "للاصطفائية" في التفاصيل الجزئية (Particulars)، وتتفق مع مذهب النفعية[٤] في توكيدها للنواحي العملية، وتتفق مع الفلسفة الوضعية في ازدرائها للحلول الكلامية، والأسئلة العديمة الجدوى، والتجريدات الميتافيزيقية[٥].

---

(١) انظر : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة . عزمي إسلام : ٨٥

(٢) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧١

(٣) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاني : ٩٨

(٤) هي : نظرية أخلاقية اجتماعية لا دينية، تجعل من نفع الفرد والمجتمع مقياسًا للسلوك ، فتقيس صواب العمل بمقدار ما يحققه من منفعة وسعادة، بصرف النظر عن توافقه مع الأخلاق أو مطابقته للدين. ومن رموزه (بنتام) و(جون ستورت ميل). وله عدة صور . انظر في ذلك: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – توفيق الطويل-: ٢١ – ٤٠ . وما بعدها .

(٥) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧٤ .

بل إن البراجماتية ترفض النظر التأملي، وتطلب التجربة بدلاً من الوقوف والتأمل، فإن "البراجماتي" عند معالجته بعض الإشكاليات بدلاً من أن يعالجها بالتأمل المعجب، يقفز إلى الأمام في نهر الخبرة، إذ يعيش فيها كما تعيش الأسماك في الماء[١].

ويرى البعض أن هذا لا يعني رفضاً مطلقاً للتفكير، وإنما للأفكار التي لا جدوى منها ، حيث إن (وليم جيمس) يدعونا للتفكير ، ولكن بشرط أن يكون هذا التأمل لحظة استراحة نضع من خلالها الفروض، ثم نعود بها إلى الواقع للتأكد من صحتها ونفعها[٢].

وبهذا نرى أن البراجماتية تذهب للتجربة، وتنبذ الجمود والتأمل، أو الحكم على الأشياء دون سابق تجربة لها ، لأن التجربة لأية فكرة هي المعيار الذي من خلاله يتم الحكم على تلك الفكرة بالصدق أو الكذب، وهي بهذا تتفق مع الفلسفة الوضعية التي تنكر وجود الحقائق أو القيم التي لم تستخدم التجربة، حتى انتهى بها المطاف إلى أن تضحي بالقيم، إذ رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية – عالم الغيب – . بينما نجد أن الفلسفة البراجماتية لا تتردد في قبول الأفكار واعتبارها صادقة متى ما كانت مفضية لنفع يتحقق في حياة الناس[٣] .

(١) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاني : ٩٨

(٢) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاني : ٩٩

(٣) انظر : مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – توفيق الطويل - :٢٦٢ .

٢ – تتبع النتائج العملية .

ونعني بهذا أن الفكرة لابد أن تكون قابلة للتنفيذ، وأن يكون لدينا اعتقاد بإمكانية تطبيقها فعلاً، وأن الفكرة أو القضية التي ليست لها نتائج عملية أو تأثير في السلوك هي قضية أو فكرة لا وجود لها .

وهذا المبدأ يتضح بجلاء من خلال تعريف البراجماتية ، حيث إنه مشتق من الكلمة التي تعني العمل ، بل إن معيار الصدق في البراجماتية لأية فكرة إنما يكمن فيما يترتب عليها من نتائج عملية – كما مر معنا -[١].

بل إن مؤسس البراجماتية "بيرس" حدد منهجه بفكرتين رئيستين، هما :

١ - أن الفكرة الحقيقة هي التي تجد طريقها إلى التطبيق العملي، وتقودنا إلى الهدف .

٢ - أن فكرتنا عن موضوع ما ، هي فكرتنا عن النتائج المترتبة على الآثار العملية .

فالعمل إذاً هو المعيار لصدق الفكرة وليس الوعي المجرَّد[٢] ، كما أنه يرى أن الفكرة لابد أن تكون واضحة، ثم لا بد أن نعتقد بإمكان تطبيقها فعلاً، وقد عبر عن ذلك بقوله : إن معنى الفكرة التي تعتقد في صحتها هو ما أنت على استعداد للقيام به من عمل إزاءها[٣] .

---

(١) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٦٥ – ٦٦ (بتصرف) وانظر : قصة الفلسفة الحديثة . نجيب محمود وأحمد أمين :١٦٢

(٢) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاني : ٩٩

(٣) انظر : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة / عزمي إسلام . ٩٤ ، ١٠٠

ويرى الفيلسوف (وليم جيمس) أن المنهج البراجماتي يضع حداً لتلك النقاشات الميتافيزيقية التي لا تنتهي، ذلك أنه يفسر كل فكرة من خلال تتبع واقتفاء نتائجها العملية، كلٌ على حدة[1].

ويقول - أيضاً - : ما الفرق الذي يحدث لأي امرئ - من الوجهة العملية - إذا كانت الفكرة صحيحة بدلاً من تلك ؟ إذا لم يكن ثمة فرق عملي يمكن تتبعه ، فالأبدال إذاً تعني من الوجهة العملية نفس الشيء ، ومن ثم فإن أي نزاع أو خصام بشأنها ، نزاع عقيم تافه معدوم الجدوى. أينما يكن النزاع جديًّا ، فينبغي علينا أن يكون في وسعنا أن نبين فرقًا عمليًّا لابد وأن يحدث من جراء صحة جانب أو آخر[2][3].

وبهذا نلحظ أن "المنهج البراجماتي" لا يهتم بمصدر الأفكار، ولا يكفيه ظهورها، وإنما يهتم بنتائجها العملية المؤثرة على سلوكنا وحياتنا .

ولتأكيد تتبع الأثر العملي وتأثيره في صدق الفكرة أو القضية، يقول (وليم جيمس) :

١ -إذا اعتقدت في صدق قضيتين، فانظر في أثر كل منهما على سلوكك العملي ، فإن اختلف سلوكك في كلا الحالتين فالقضيتان مختلفتان، وإن لم

---

(١) البراجماتية – وليم جيمس - : ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) البراجماتية – وليم جيمس – : ٦٤ .

(٣) بمعنى أنه إذا لم يكن الخلاف حول قضيتين ذا فائدة ، ويوضح فرقاً جلياً فإنه خلاف عقيم.

تختلف النتيجة فالقضيتان قضية واحدة ، ولكن بصورتين لفظيتين مختلفتين.

٢-إذا لم يختلف الأثر العملي نتيجة لاعتقادك بصدق قضية عن الأثر العملي المترتب على اعتقادك بكذبها، فالقضية لا معنى لها ولا وجود لها ، لأن العبرة في الفكرة تقوم فيما ينجم عنها من أثر في السلوك[١] .

وبهذا نرى أن تأكيد المنهج البراجماتي لفكرة تتبع النتائج العملية، إنما ينبع من تتبع النتائج لهذه الفكرة، وذلك يُعد امتداداً للفكر العلمي والتجريبي، وهو ما تذهب إليه النظريات العلمية، فلكي نستوثق من قدر نظرية من النظريات، نحاول أن نتخيل أنها مطبقة فعلاً في الواقع العملي، حتى يتسنى لنا رؤية ما عسى أن يكون هناك من نتائج لتطبيقها... ونحن نلاحظ أن أشد نظريات الطبيعة أو الفلك تعقيداً يحكم عليها في نهاية الأمر بمقتضى نفعها في التنبؤ بالخسوف، أو في تفسير ظواهر كهربية، وما على غرار ذلك . فليست "البراجماتية" فلسفة مثالية ذاتية، وليست نفعية بالمعنى الساذج للمنفعة ، ولكنها فلسفة تقدمية تستمد جذورها من الواقع، ومن نتائج العلوم الطَّبعيِّة ، وتقود إلى تجاوز الماضي، والابتعاد عن الأفكار الميتافيزيقية التي لا جدوى منها[٢]. وهو ما سنتحدث عنه في المبدأ التالي .

---

(١) انظر : محاضرات في الفلسفة المعاصرة . حبيب الشاروني : ١٧

(٢) انظر : فلسفة التقدم . حسن محمد الكحلاني : ١٠٢ . وليم جيمس . محمد فتحي الشنيطي ٧٤

٣ - القطيعة مع الماضي :

وهو من الأسس التي يقوم عليها "المنهج البراجماتي" ، إذ ينطلق من المستقبل متجاهلاً الماضي ، وجاعلاً الحاضر لحظة إعداد، لتحقيق برنامج نصنعه للمستقبل .

فهو يحدث قطيعة مع الماضي ، ويرفض البحث في المبادئ الأولية، وفي كل أشكال المطلق، فلا يسأل عن كيفية نشوء الأفكار، ولا عن مصدرها، وإنما يبحث عن نتائجها العملية التي يمكن أن تقودنا إلى تغيير الواقع نحو الأفضل[1].

وبهذا الصدد يقول "وليم جيمس" : إن البراجماتي يدير ظهره بكل عزم وتصميم، وإلى غير رجعة ، لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين. إنه ينأى بعيداً عن التجريد، وعن عدم الكفاية، ويُعْرِض عن الحلول الكلامية، وعن التعليلات القبلية الدرئية (السابقة على التجربة)، وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة .وهو يولي وجهه شطر الاستنادية، والمحسوسية، والكفاية، شطر الحقائق والوقائع، شطر العمل والأداء والمزاولة ، وشطر القوة [2].

---

(١) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة – اميل برتر – ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني : ٢١٨ – ٢١٩ (بتصرف) . قصة الفلسفة – وول ديورانت - : ٦١٨ .

(٢) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧١ .

ويقول (جون ديوي) : إن "الراديكالي" الذي يؤكد أن منهج المستقبل في التغيير لا بد أن يكون منهج الماضي ، إنما يتفق مع الرجعي الذي يؤمن بأن الماضي يملك الحقيقة القصوى ، فكلاهما يغفل حقيقة أن التاريخ عملية تغيير مستمر[١].

فالفلسفة البراجماتية، استبدلت النظر إلى المستقبل بالنظر إلى الماضي، لذا فهي لا تسأل كيف تنشأ المعرفة أو الأفكار، بقدر ما تسأل عن النتائج التي تترتب على هذه الفكرة، أو تلك في عالم الواقع[٢]، وتنظر للواقع على أساس أنه نقطة انطلاق للمستقبل، وليس شاهداً على الماضي فقط .

فالحق في نظر "وليم جيمس" ليس صورة لشيء قد كان، أو شيء هو كائن، وإنما هو شيء يؤذن بما سيكون، أو أنه يمهد لفعلنا وأثرنا فيما سيكون[٣]. لذا نجده يقول : إن أية فكرة تحملنا بيسر ورخاء من أي جزء من خبراتنا إلى جزء آخر، بحيث تربط الأمور ربطاً كافيًا وافيًا ، وبحيث تعمل في أمان، وتوجز وتوفر الجهد والعمل ، هي فكرة صحيحة إلى هذا الحد ، صحيحة بهذا بالقدر[٤] فهو[٥] يرى الحقيقة ناظرة إلى الأمام، وليست متعلقة بأشلاء الماضي .

(١) انظر : فلسفة التقدم – حسن محمد الكحلاني - : ١٠٣ .
(٢) انظر : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة : عزمي إسلام . ٨٦
(٣) فلسفة التقدم – حسن الكحلاني - : ١٠٤
(٤) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٨٠
(٥) أي وليم جيمس .

ولذا فإن المنهج البراجماتي يقوم على القطيعة مع الماضي، وتجاوزه، والبدء من المستقبل من خلال الزمن الذي نعيشه، والذي نتوخَّى أن نعيش فيه ، وليس من خلال ماض عاش فيه غيرنا . ولهذا يكون الإعداد لا من الماضي ولا من الحاضر، بل من المستقبل أولاً[1] . فالمستقبل هو الهدف الأسمى الذي تسعى إليه الفلسفة "البراجماتية" .

يقول "جيمس" مؤكداً ذلك : لنا الآن أن نقرر بثقة ويقين أن الرغبة في تحديد المستقبل وفي تعيينه، تكون عنصراً مهماً من عناصر الميول الفلسفية، وأن كل فلسفة تتجاهل إشباع تلك الرغبة ، ولا تعمل على ذلك، لا يمكن أن تحوز قبولاً عاماً ، وبالتالي فإنها فلسفة متشائمة[2].

وترفض الفلسفة "البراجماتية" كل الفلسفات التي تكتفي بتحليل مكونات العالم ، ولا تعمل على تغييره ، وتكتفي بالنظر إلى الماضي بدلاً من المستقبل . ولهذا فإن المنهج البراجماتي هو أسلوب جديد في التفكير، يتسم بالتجاوز المستمر للماضي ، ولذا نجده يؤكد إمكانية الابتكار و التقدم المتجدد ، وهنا تكمن ثورية هذا المنهج وهذه الفلسفة[3] التي ترى أننا نعيش في اللحظة الراهنة، ونعد للمستقبل ، إذ إن المهمة الراهنة في التحضير

---

(١) انظر : البراجماتية ، صيغة أمريكية لفلسفة واقعية . وليم فرح حنا : ١٧ _ ١٧ . فلسفة التقدم : ١٠٤

(٢) إرادة الاعتقاد وليم جيمس (الجزء الثاني – العقل والدين) :. ترجمة . محمود حب الله . ٥١ _ ٥٢ وانظر . فلسفة التقدم : ١٠٤

(٣) وانظر . فلسفة التقدم : ١٠٤

للمستقبل عن طريق التنبؤ بما ينبغي أن يحدث وفقاً لخطط نضعها، ولكن ذلك لا يعني إلغاء الحاضر على حساب المستقبل، ولكننا نستخدم التنبؤ بالمستقبل لتهذيب النشاط الحاضر وامتداده إلى المستقبل ، وهنا نلاحظ الترابط بين الحاضر والمستقبل، مع استبعاد العودة للماضي[١].

٤ - الوعي الواقعي :

ويُقْصَدُ به أن البراجماتي ينبغي أن يكون ذا وعي شديد وتنبه دقيق عند مناقشة الأفكار، وتجربتها، والتأكد من صدقيتها، فهو لا يعبأ بالأفكار المجردة والمناقشات التي لا تلامس الواقع، ولا تدعو لتغييره ، وإنما ينظر للأفكار والنظريات من خلال قدرتها على تغيير أسلوب حياتنا وصنع المستقبل، كما أنه لا يقدم حلولاً جاهزة على غرار الفلسفات المثالية ، بقدر ما يعد برنامجاً أو منهجاً للمزيد من العمل .

وتأكيدا لهذا فإن "وليم جيمس" يرى أن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولاً لألغاز ولا إجابات عن أحجية، نستطيع أن نسكن إليها ونخلد ، وعند ذلك فنحن لا نضطجع عليها ، وإنما نتحرك إلى الأمام ونمضي قدما ، وعند الاقتضاء نعيد صنع الطبيعة ثانية بعونها[٢] .

---

(١) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني . جون ديوي . ترجمة . محمد لبيب النجحي : ٣٢٦ . وانظر . فلسفة التقدم : ١٠٤

(٢) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧٤ (بتصرف)

واستمر هذا المنهج بعد "جيمس" لدى "جون ديوي" الذي اشتهرت فلسفته بالفلسفة الذرائعية أو الأداتية ، إذ يرى أن " الفكر ، ما هو إلا أداة من أجل العمل ، ولا يبدأ الإنسان في التفكير إلا حين يصطدم بصعوبات مادية يكون واجباً عليه التغلب عليها ، وبالتالي فإن الأفكار ليس لها إلا قيمة "أداتية" أو وسيلة ، وحسب ، من هنا جاءت تسمية مذهب "ديوي" بالذرائعية[١][٢].

فالعقل عند البراجماتي أداة لفهم العالم وتغييره، والنظريات الفلسفية وسائل تقودنا لإنجاز أهداف نحددها نحن في المستقبل[٣].

فلم يعد الفكر عند البراجماتي عملية تجريدية تظل قائمة في الفراغ ، وإنما الفكر صورة من صور الفعل والسلوك، فهو وظيفة حيوية، ولذا فإن الأفكار والاعتقادات ليست سوى أدوات في الحياة العملية ، وليست حقائق ضرورية توصل إليها بالبرهان والاستدلال ، أو كشف عنها كصور مطابقة لحقائق خارجية مستقلة عنه .

---

(١) انظر : الفلسفة المعاصرة في أوربا – أ . م . بوشنسكي : ١٦٢ .

(٢) لفظة الذرائعية مرادفة للفظة (البراجماتية) التي كانت قليلة الاستخدام في اللغة الانجليزية، حتى استخدمها (بيرس) للدلالة على مذهبه ، واستخدم الذرائعية باعتبار أن أفكار الناس هي مجرد ذرائع يستعين بها الإنسان لحفظ بقائه، ثم البحث عن الكمال .

(٣) انظر : فلسفة التقدم – حسن الكحلاني - : ١٠٥

لذا يوصي المنهج البراجماتي بضرورة النظر إليها كفروض عملية يوجهها الاختيار الذي تنبعث إليه عوامل إنسانية متعددة[١]. والأهمية التي تكتسبها أية نظرية أو إيديولوجية سياسية، إنما تكمن في مدى قدرتها على التطبيق فعلياً، وقدرتها على خلق واقع جديد[٢].

(١) انظر :نظرية القيمة في الفكر المعاصر – صلاح قنصوة- : ١٣٩ – ١٤٠ . وانظر : فلسفة التقدم : ١٠٥

(٢) انظر : فلسفة التقدم : ١٠٥ .

الفصل الثاني :

مناقشة المذهب البراجماتي .

قبل أن نبدأ في المناقشة ،لا ينبغي أن نغمط رموز هذه الفلسفة حقهم ، بل علينا أن نشيد بهم، وبتطويرهم للفكر الذي يقوم على حفز الأمل، وتحدي العجز ، والنظر للمستقبل، بدلا من التقوقع في غياهب الماضي السحيق ، وعلى بعث الشجاعة في نفوس الناس لإخضاع أفكارهم للتجربة ، وتتبع النتائج العملية الناتجة عنها . إلا أن هذا الثناء ليس على إطلاقه، فإن هناك بعض الملاحظات النقدية الهامة ؛ منها ما له علاقة بالنواحي الفلسفية، ومنها ما له علاقة بالدين وأصوله ومبادئه، وقواعد الأخلاق العامة .

أولاً : مناقشة البراجماتية من المنظور الفلسفي :

فمن المنظور الفلسفي نجد أن أهم مبدأ تقوم عليه البراجماتية هو القطيعة مع الماضي، وعدم الالتفات إليه، و أن على البراجماتي أن يدير ظهره بكل عزم وتصميم وإلى غير رجعة لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين[1].

وفي الوقت نفسه نجد أن البراجماتيين ينطلقون في أفكارهم من منطلقات فلسفية قديمة نادى بها كبار الفلاسفة، فهذا الفيلسوف "بروتاجوراس"

(١) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٧١ (بتصرف)

(٤٨١ – ٤١١ ق . م) يقول في قاعدته المشهورة (الإنسان مقياس الأشياء جميعًا)، وهو نفس المبدأ البراجماتي الذي يجعل الحقيقة نسبية، وتختلف من شخص لآخر ، بحسب ماتحققه له من فائدة ونفع ، وساهم كل من (سقراط) و(أفلاطون) في تكريس مبدأ التركيز على التجربة، بوصفها مكوناً ضرورياً من مكونات المعرفة، الأمر الذي كان موضع تركيز كبير من جانب البراجماتيين المعاصرين، كما ساهم (أبيقور ٣٤١ – ٢٧٠ ق . م) وتلاميذه في الابتعاد عن القول التقليدي بالصدق المطلق أو الحقيقة المطلقة، ذلك أن الحقيقة الفلسفية بالنسبة لهم هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها[1].

كما أن الفلاسفة (أوغسطين) و(دانز سكوت) و (بيكون) و(كوبر نيق) و(جاليليو) كل منهم قد ساهم بنصيبه في مجال الملاحظة والتجربة، التي هي أساس المذهب البراجماتي[2] ، وإن لم يكن أحد منهم براجماتياً .

وبهذا نجد أن الفلسفة البراجماتية تناقض نفسها في البعد عن الماضي والادعاء بالجِدَّة والحداثة ، وفي نفس الوقت تكرر أقوال فلاسفة قدامى وتتبنى آراءهم ، مما يؤكد أنها في حقيقتها مجرد إعادة للنظرة الرواقية القديمة التي ينادي مؤسسوها بمتابعة الفطرة، والعيش وفق الطبيعة ، باعتبار أن

(١) انظر : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة – د. محمد مهران - : ٤٦

(٢) انظر : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة – د. محمد مهران - : ٤٥ – ٤٩ (باختصار و تصرف)

الدساتير والنظم الاجتماعية إنما هي من وضع الإنسان وصنعه لاغير[١] ، مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة[٢] في جعل المنفعة معيار الصدق والحقيقة ، مما يجعل المجتمع غابة من الوحوش الضارية، التي يأكل بعضها بعضاً ، إذ تتنافس على (التفوق) و(الغلبة) وتحقيق النجاح ، بصرف النظر عن الهدف ، وجعل المنفعة هي معيار الصدق والحق ، مما يجعل إرادته لا تتفق على تحقيق أية قيمة من القيم الفاضلة : كالحق والعدل والإيثار، وغيرها من الفضائل الإنسانية الثابتة في ذاتها ، الأمر الذي جعل هذه الفلسفة ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة[٣] التي ظهرت مساوئها عند التطبيق ، واستفحلت أخطارها ، في عدد من الجوانب، منها :

١ - اللا أخلاقية ، على الرغم من أنها تتقيد ببعض الفضائل، كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد ، إلا أنها ليست مقصودها بذاتها بقدر ما تحققه من منفعة مادية ، حيث إنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير، فالحق لذاته والباطل لذاته – بصرف النظر عما يترتب عليهما من وجوه النفع أو الضرر – حديث خرافة عندهم[٤].

---

(١) انظر : فلسفة الرواق – جلال سعيد - : ١٢

(٢) انظر : المفكرون من سقراط إلى سارتر . هنري توماس : ٣٢٧

(٣) انظر : قصة الفلسفة . مراد وهبة : ١٠٥

(٤) انظر : مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – توفيق الطويل - : ٢٥٩

٢- الارتباط الوثيق بالحرب ، عندما تكون نتائجها في صالح الطرف الآخر ، بغض النظر عن الممارسات اللا إنسانية والأذى والتشرد والضرر الذي يقع جراء تلك الحروب.

٣- الانحرافات السلوكية ، وأظهرها سلوك الإجرام، وعصابات القتل المنظم، وغسيل الأموال، وتجارة المخدرات ، وفتح الباب على مصراعيه للمنافسات والصراعات[١].

وقد امتازت الفلسفة البراجماتية عن الفلسفة القديمة بالمبدأ التجريبي، وتتبع النتائج والوعي الواقعي، إلا أن هذا الامتياز ليس جديدًا ؛ فإن المذهب التجريبي قد نشأ على أيدي الفلاسفة المسلمين الذين أخضعوا الفلسفة اليونانية الذهنية للتجربة العملية[٢]، وتحديدًا على يد الفيلسوف والعالم الكيميائي (جابر بن حيان) الذي يؤكد بأنه يقصر نفسه على مشاهداته التي تجيء التجربة مؤيدة لها، إذ قد تكون الظاهرة المشاهدة حدثاً عابراً لا يدل على اطراد في الطبيعة، وكذلك الحال في استنباط النتائج واستقرائها التي تغنى بها الغربيون كثيرًا ، وعدُّوها من إنجازاتهم الفكرية غير المسبوقة[٣] .

وكذلك فإن "الدين" لم يسلم – أيضاً – من التفسير النفعي فلسفياً في ضوء الفلسفة "البراجماتية" ؛ حيث إن شرط اعتبار وجود "الدين" وأصوله

(١) انظر : الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية . د : فؤاد زكريا : ٦ (بتصرف)
(٢) انظر : الفكر الغربي – دراسة نقدية – أنور الجندي - : ٢٥
(٣) انظر : جابر بن حيان – د . زكي نجيب محمود : ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ . وما بعدها .

ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة "الدين"؛ لأن قيمته فيما ينتجه[1] ، وهذه هي النظرة البراجماتية للدين؛ لأن الدين عند البراجماتي لم يكن موضعاً للبحث في ذاته، وإنما آثار الانفعال الديني هي موضع البحث، وهل هذه الآثار حسنة تحقق الأمل أم لا تحققه ؟ وهل يمكن الحصول عليها بطريق آخر خلاف الطريق الديني ؟ . مما يعد تجاوزاً للعقل في تفكيره وإرهاقاً له ، ناهيك عن كونه تحويل الدين إلى قيمة مادية ملموسة، قد تكون ذات يوم لها نفع وفي يوم آخر لا نفع لها .

---

(١) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . أميل بوترو . ٢٤٧ . ترجمة د : أحمد فؤاد الأهواني

ثانياً : مناقشة البراجماتية من المنظور الديني :

إن الدين الإسلامي ـبحمد الله تعالى ـ يمتلك أعظم ثروة في مجال العقيدة والقيم والسلوك والأخلاق ، ولقد ترك لنا المصطفى - r - تراثاً ضخماً من الأحاديث القولية والفعلية التي تحث على حسن الأخلاق والسلوك ، إضافة إلى العبادات ، بالشكل الذي جمع لنا فيه بين (العلم والعمل) .

وقد قامت الفلسفة البراجماتية على أساس أن المعيار في بيان صحة الأعمال وحسنها إنما يكون من خلال النتائج المترتبة عليها ، فأخضعت كل شيء لمبدأ "النفعية"، وجعلت النتيجة هي معيار الحكم على حسن ذلك العمل والأخذ به، أو قبحه وتركه ، وقد طبقوا ذلك المبدأ على الدين، فأصبح الدين نافعاً في بعض الأحوال مما لا يمكن استبدال غيره به[١] ، وفي هذا يقول "برتراندرسل": لا يقنع مؤمناً مخلصاً إيمانه ، لأن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع عبادته وإيمانه، إن المؤمن لا يقول : إني إذا آمنت بالله سعدت، ولكنه يقول : اني أؤمن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد.... إن الاعتقاد بوجود الله – تعالى – في نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل أن يترتب على وجوده من نتائج وآثار[٢].

---

(١) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . أميل بونرو . ٢٤٧ . ترجمة د : أحمد فؤاد الأهواني

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة الغربية . براتراندسل : ٤٧٥ . ترجمة د : محمد فتحي الشنيطي . وانظر : مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق . د : توفيق الطويل : ٢٧٥ .

وقد ينخدع البعض بالبراجماتية عندما يقرأون هذا الكلام لـ(برتراند سل)، وعندما يقرأون بأن رائدها (وليم جيمس) قد اعتقد بوجود الله من خلال تطبيق المنهج البراجماتي، إذ إن في هذا مساواة بين كل ما في العالم من نحل وملل ، سواء كانت سماوية أم أرضية صادقة أو مزيفة ، لأن المعيار البراجماتي في صحتها هو مقدار ماتحققه من منفعة وراحة وطمأنينة – مباشرة أم غير مباشرة – لمعتقدها .

والسبب في ذلك هو أن المعيار في الصدق والحقيقة لدى البراجماتية مقلوب ، فعندهم يكون الحق حقًّا إذا كان نافعاً ، ومتى لم يكن نافعا فهو ليس بحق ، بينما الحق والعقل والمنطق يقتضي أن الحكم على الحق والصدق ليس مرتبطاً بالمنفعة ، فكل حق يكون نافعاً وليس العكس .

كما أن العقل البشري ، بما أودعه الله فيه من خصائص ، له حدود لا يتجاوزها، ولا يستطيع أن يتخطاها ، لذا فقد أرسل الله الرسل _ عليهم الصلاة والسلام _، وأنزل عليهم الوحي ليكون نبراساً يضيء الطريق أمام العقل ، ليسير على هدىً وصراط مستقيم، فلا يتخبط في سيره ، ولا يتناقض في فهمه ، فإنه لا يستطيع الوقوف وحده من غير عون من الوحي ، فالعقل مع الوحي كالتابع مع المتبوع ، كما أن العقل قد تؤثر عليه العوامل الخارجية من عاطفة أو غضب أو مجتمع ....

ونحن نرى أن (وليم جيمس) الذي يمثل الفيلسوف البراجماتي المتدين، يبدأ آراءه الدينية بقوله : إن الذي يكون صميم الدين ليس

الطقوس ولا الفرائض ولا المعتقدات، بل الذي يكون صميم الدين العاطفة والشعور الديني . بل إنه يخضع الإيمان بالله والاستدلال على وجوده لذلك الشعور ، وأن الأفكار اللاهوتية متى ما أثبتت أن لها قيمة في الحياة المحسوسة فهي أفكار صحيحة[١] .

و هذا الرأي غير مقبول إطلاقاً ؛ حيث إن الإيمان لا يتوقف فقط على العاطفة ؛ ذلك أن العاطفة والوجدان عواطف متقلبة دائماً ، وبالتالي فمن هذا المنطلق فإن الإنسان سوف يؤمن عندما يكون في حالة مزاجية عاطفية وجدانية ، ويعود إلى الإلحاد عندما تتغير حالته المزاجية ، وقطعاً الإيمان ليس كذلك ؛ إنما هو صرح يقوم على أسس عقائدية يؤمن بها الإنسان، ويلتزم بها، ويسلم لها؛ لأنها من عند الله عز وجل، ولن تكون إلا في صالحه. قال ابن كثير : أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال[٢]:
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

إضافة لكون مجرد إخضاع الدين والأوامر الإلهية للتجربة للحكم بصحتها أو عدمها ، يعتبر مشاركة لله تعالى في خلقه ، مما يتنافى مع الوحدانية التي هي لله تعالى ، فهو الأحد الفرد الصمد الذي لم يكن له كفواً أحد ، وهو الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن كيف يكون .

---

(١) انظر : البراجماتية – وليم جيمس - : ٩٦

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ٤ : ٢٥٧ .

إن مجرد التفكير في إخضاع الدين للتجربة هو شك في صحته ، والدين لا يقبل شكاً ، فلا يجوز الجمع بين الشك والإيمان ، لأن أمور الإيمان تتجاوز الحس ولا تدخل في مجال التجربة ، و المسلم الحق لا يضع عقيدته موضع الشك ، ولا يجعل إيمانه بالله تعالى موضع اختيار ، بل على العكس تماما ، يؤمن بأن الله عز وجل يختبر عباده .

7 8 M 0 1 2 3 4 5 6 7

8 9 : ; < L [البقرة: ١٥٥]

7 8 M أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ © يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ ´ µ ¶ ¸ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]

7 8 M كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ L [الأنبياء: ٣٥]

و قال رسول الله - **r** - : **((عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن إصابته ضراء صبر، فكان خيراً له))** [1].

وتنكر البراجماتية وجود حقائق موضوعية وقيم مطلقة، وتؤكد أن الحقيقة هي اكتشاف اختراع شيء جديد، وليس اكتشاف شيء موجود ، ومقياسها يقوم على مدى نفعها في دنيا العمل[2].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩) .

(٢) انظر : مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – توفيق الطويل - : ٢٦١

وهذا نسف تام لكل القيم الأخلاقية التي هي من صميم التركيبة الإنسانية ، ولها أصول ضاربة في الأعماق ، كما أنه إنكار للقيم والمبادئ التي أقرها الشرع، وجهلنا الحكمة منها ، لقصور في معرفتنا ، مع اعتقادنا بأن الخير كل الخير يكمن فيها .

إن تحديد "الخير" يكون من الشرع، وليس من الإنسان؛ فقد يقر الشرع أمراً يرى الحق فيه ، ويرى الإنسان _لقصوره_ أنَّ فيه شراً، بينما هو في حقيقة الأمر "خير"، كما هو الحال في القتال؛ 7 8 M ! "
$ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2
3 4 5 6 8 9 : ; < L [البقرة: ٢١٦].

قال ابن كثير : « هذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم » [1].

كما أن الإنسان قد يجهل الفروق المرجحة لما يفيده عما يضره، 7 8 M ´ µ ¶ ¸ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ L [البقرة: ٢١٩].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم . ابن كثير ١ : ٢٥٢٥

إن إقامة المجتمعات على موازين الكسب والخسارة وحدهما ، كفيل بهدم تلك المجتمعات ، إذ كيف يقوم مجتمع من المجتمعات وينهض إذا كانت العلاقة التي تقوم بين أفراده لا تقوم إلا على أساس المصلحة والكسب المادي ، فكم من علاقات أخرى تقوم على الإيثار والتضحية وحب الخير لذاته ، وهي التي تكفل تحقيق السعادة للمجتمع ؛ لأن التعاطف والتعاون هما الرائدان في حركة المجتمع الإنساني ، وإلا تحول إلى غابة من الغابات التي يأكل فيها القوي الضعيف .

ومن الصعب إقناع النفوس بأعمال الخير ، التي لا تقوم على المال ، إلا بناءاً على عقيدة إيمانية راسخة، تحقق أعمالاً خيرة، وتسعى لاكتساب فضائل أخلاقية، وإلى تنميتها ابتغاء مثوبة الله تعالى وجنته. وكم في الإسلام من أعمال خيرة يحض عليها، ويحث على فعلها، لتحقيق أفضل حياة إنسانية ممكنة على ظهر هذه الأرض[1]، مع عدم وجود المنفعة الظاهرة حالياً ، حسب مفهوم البراجماتية .

فعن جابر - **t** - قال : قال رسول الله - **r** - : ((**ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرِق له منه صدقة، وما أكل السبع**

(١) انظر : الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي . د . مصطفى حلمي :٢١٤ - ٢١٥

منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة))[1] .

وعن أبي هريرة - t - قال : قال رسول الله - r - : ((إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي))[2].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه :برقم (١٥٥٢).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : باب فضل الحب في الله : ٢٥٦٦

الخاتمة

كان هذا البحث عن "البراجماتية"، بدأناه بتعريف لفظة البراجماتية، وأنها تعني العمل، وقد اشتقت من اللفظ اليوناني (pragma)، وقد اشتقها (تشارلز بيرس) ليدل بجدة اللفظة على جدة المذهب، ثم تطور هذا المذهب على يد الفيلسوف (وليم جيمس)، وأضاف إليه مبدأ (النفعية)، وجعل مبدأ النفعية مضافًا إلى (الصدق) عند (بيرس) ليدل على صحة الفكرة والقضية، ثم تولى زمام الأمر(جون ديوي)، وأدخل فيه التطبيق العلمي.

وقد قامت هذه النظرية على أسس ومبادئ، أهمها (التجربة) و(القطيعة مع الماضي)، وقد تمت مناقشتها من الجانب الفلسفي والجانب الديني، فتبين لنا أنها من الناحية الفلسفية امتداد للفلسفة الرواقية، مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة، أما من الناحية الدينية، فإنها مخالفة للإسلام من خلال إنكارها للقيم والحقائق المطلقة، وإخضاع الدين للتجربة، للحكم عليه صدقًا وكذبًا ، من خلال ما ينتج عنه من مكاسب ومنافع .

و بعد أن بينا ذلك كله ، يمكننا أن نسجل النتائج التالية :

١. لفظ "البراجماتية" لفظ دخيل على أصحابه، حيث إنه منحوت من اليونانية ، فقد كان الهدف من واضع المنهج البراجماتي "بيرس" أن يأتي بجديد ، فأتى بلفظ جديد من لغة أخرى .

٢. "البراجماتية" بشكلها الحالي ، واجهت نقداً من أشهر وأبرز أعلامها، بل وممن التصق اسمها به، لكونه اللسان المعبر عن المذهب أمداً طويلاً، وهو "وليم جيمس"؛ حيث لم يرق له تطبيق المنهج "البراجماتي" بالشكل

"النفعي" الذي أطلق عليه (عبادة تلك الآلهة الفاجرة التي تدعى "النجاح")، كما أنه لم يكن يحب لفظ (البراجماتية)، ويرغب في تغييره، إلا أنه يرى أن الوقت قد فات[1].

٣. البراجماتية فيها نبذ للماضي وعدم الاعتداد به .

٤. "البراجماتية" فيها استهتار صريح "بالدين"؛ حيث تنظر له من خلال المنفعة التي تتنتج عنه، بغض النظر عن مقاصده الشرعية، ومعانيه السامية .

٥. "البراجماتية" لا تحمل في طياتها أية قيم أخلاقية أو إنسانية ، إذ ليس فيها مجال للقيم الأخلاقية والإنسانية ، فأساس التعامل بين الأفراد هو المصلحة بينهم .

٦. "البراجماتية" فتحت الباب على مصراعيه لتطبيق شريعة الغاب ، وأن يسحق القوي الضعيف ، حتى يحقق المنفعة ، ويكون لعمله أثر ونتيجة.

٧. من المنطلق "البراجماتي" يكون اللص والقاتل في المنطق البراجماتي، ناجحاً في حياته، وعمله مقبولاً طالما أنه لم يتم القبض عليه، وما زال يحقق المكاسب من تلك الجرائم .

٨. لاتوجد حقائق وقيم مطلقة عند البراجماتيين ، فالحقائق والقيم عندهم نسبية متغيرة بحسب الزمن والأشخاص .

---

(١) انظر : مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – توفيق الطويل - : ٢٦٠ . رواد الفلسفة الأمريكية – تشارلز موريس – ترجمة د .ابراهيم مصطفى - : ٢٣

قائمة بالمصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير القرآن العظيم . لابن كثير .طبعة دار المعارف

٣- صحيح الإمام مسلم .

٤- اتجاهات في الفلسفة المعاصرة . عزمي إسلام . وكالة المطبوعات – الكويت – الطبعة الأولى ١٩٨٠

٥- إرادة الاعتقاد . وليم جيمس . ترجمة. محمود حب الله .دار إحياء الكتب العربية.١٩٤٦

٦- البراجماتية - وليم جيمس . محمد فتحي الشنيطي . مكتبة القاهرة الحديثة . الطبعة الأولى.١٩٥٧ .

٧- البراجماتية ، صيغة أمريكية لفلسفة واقعية . وليم فرح حنا . دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .

٨- بعض مشكلات الفلسفة – وليم جيمس – ترجمة : د.محمد فتحي الشنيطي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر -

٩- تاريخ الفلسفة الأمريكية .هربرت شيندر . ترجمة : د: محمد فتحي الشنيطي

١٠- تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم . دار المعارف . مصر . الطبعة الخامسة ١٩٦٩ .

١١- تاريخ الفلسفة الغربية . براتراندسل. ترجمة د : محمد فتحي الشنيطي

١٢- الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية د: فؤاد زكريا .

١٣- جون ديوي . أحمد فؤاد الأهواني .دار المعارف – مصر – الطبعة الثالثة

١٤- دراسات في الفلسفة المعاصرة – زكريا ابراهيم – مكتبة مصر – القاهرة .

١٥- رواد الفلسفة الأمريكية –تشارلز موريس – ترجمة :د. ابراهيم مصطفى – مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية – ١٩٩٦م

١٦- شيلر .عثمان أمين .دار المعارف . مصر.

١٧- الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني .جون ديوي .ترجمة محمد لبيب النجحي مؤسسة الخانجي. القاهرة.١٩٦٣

١٨- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة – أميل بوترو – ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م

١٩- الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث . د : مصطفى حلمي . الطبعة الأولى – دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع – ١٤١٨ - ١٩٩٨م.

٢٠- فلسفة التقدم (دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ) حسن محمد الكحلاني . مركز الاسكندرية للكتاب . ١٩٩٧م

٢١- فلسفة وفن – زكي نجيب محمود – مصر ١٩٦٣ .

٢٢- الفلسفة المعاصرة في أوربا – إ. م . بوشنسكي - ترجمة د. عزت قرني سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بدولة الكويت.

٢٣- الفن خبرة . جون ديوي . ترجمة زكريا إبراهيم . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٣م

٢٤- في الفلسفة العامة - دراسة ونقد – د : محمد عبد الله الشرقاوي – . دار الجيل –بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٩١ م.

٢٥- في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق.

٢٦- قصة الفلسفة – ول ديورانت : ترجمة : د. فتح الله محمد المشعشع– مكتبة المعارف – الطبعة السادسة .

٢٧- قصة الفلسفة . مراد وهبة . القاهرة – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٠م.

٢٨- قصة الفلسفة الحديثة . نجيب محفوظ وأحمد أمين – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٣٥٥ – ١٩٣٦م

٢٩- محاضرات في الفلسفة المعاصرة . حبيب الشاروني . دار الفكر الجامعي . الاسكندرية ١٩٧٨ م.

٣٠- مدخل جديد إلى الفلسفة - د: مصطفى النشار - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الرابعة – ١٩٩٨م

٣١- المذاهب الفلسفية المعاصرة – سماح محمد رافع – مكتبة المدبولي .

٣٢- المعجم الفلسفي – د. مراد وهبة – الطبعة الثالثة – ١٩٧٩م

٣٣- المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية – القاهرة – ١٩٨٣ م

٣٤- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٣٥- المفكرون من سقراط إلى ساتر . هنري توماس – ترجمة عثمان نوية – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٧٠م ، ومكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٧٨ م

٣٦- من زاوية فلسفية . د: زكي نجيب محفوظ .دار الشروق – الطبعة الرابعة – ١٩٩٣م.

٣٧- المنجد في اللغة والإعلام –

٣٨- نافذة على فلسفة العصر – د. زكي نجيب محمود – سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي – الكتاب السابع والعشرون– ١٥– ابريل – ١٩٩٠ م

٣٩- نظرية القيمة في الفكر المعاصر – صلاح قنصوة – دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة . ١٩٨١ م.

فهرس الموضوعات